

# [تانكا] الحسن والحسين

## الخروف الأسود في بغداد

آزاد اسكندر – العراق

### من ومتى وأين؟

قراقوينلو: (١٤١١ - ١٤٧٠م).
أنحاء من العراق وإيران وشرق الأناضول.

هذا زمان القطعان. أوان القبائل وحكمها. زعماؤها ورثوا بلاد النهرين، فدولة العباسيين انقضت منذ أمدٍ يبدو بعيدًا، وأقام هولاكو مُلكًا على أنقاضها. حَكَمَ أحفادُ هولاكو العراق نحو ثمانين سنة، إلى أن مات أبو سعيد آخر السلاطين الأقوياء من سلالته سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م، دون وريث للعرش. فاشتعلت حربٌ بين أمراء المغول استمرت لبضع سنين، ثم انتهت بقيام السلطنة الجلائرية. أسَّسَها الشيخ حسن الجلائري، ثم أورثها ابنه أويس الذي تقاتل أولاده من بعده على الحكم، حتى وصلت بغداد إلى أيدي أصحاب الخراف السود على طبق من ضعف ودمار ودم.

قرا قوينلو، أو أصحاب الخراف السود، قبائل تركمانية كان مشتاها في منطقة الموصل، ومصيفها في منطقة بحيرة وان شرق الأناضول. استولى زعيمها بيرام خواجة على الموصل وسنجار سنة ١٣٧٦م، وحين مات بعدها بأربع سنوات كانت الأراضي الممتدة بين الموصل وأرضروم تقع تحت الحكم المباشر لقبائل قرا قوينلو. بوفاة بيرام خواجة، انتقلت الزعامة إلى ابن أخيه قرا محمد، ثم بعد حين إلى قرا يوسف بن قرا محمد، وهذا هو الذي يعود إليه الفضل في تحويل قرا قوينلو من اتحاد عشائري إلى دولة.
استفاد قرا محمد وابنه قرا يوسف من الصراع بين ورثة العرش الجلائري بعد وفاة السلطان أويس، وخصوصًا من تقديم المعونة العسكرية التي طلبها السلطان أحمد بن أويس منهما مرارًا. لكن كان على طموح زعماء قرا قوينلو أن يصطدم أولًا بتوسع تيمورلنك باتجاه العراق الذي صادف تلك الأيام.

احتل تيمورلنك بغداد مرتين، الأولى سنة ١٣٩٣م، والثانية سنة ١٤٠١م. في المرة الثانية سار تيمورلنك إلى بغداد وحاصرها «حتى أخذها عنوة يوم عيد النحر من هذه السنة، ووضع السيف في أهلها، وألزم جميع من معه أن يأتي كل واحد منهم برأسين من رؤوس أهلها، فوقع القتل حتى سالت الدماء أنهارًا، وقد أتوه بما التزموه فبنى من هذه الرؤوس مائة وعشرين مئذنة ثم جمع أموالها وأمتعتها [...].»

تاريخ العراق بين احتلالين، المجلد الثاني، ص٢٦٢.

في كل مرة يطرق الموتُ أبوابَ بغداد، يهرب السلطان أحمد بن أويس تاركًا الناس لمصائرهم، ثم يعود بعد زوال الخطر. وهكذا فَرَّ السلطان من العراق بأكمله، وفَرَّ قرا يوسف على أعقابه أيضًا، حتى انتهى بهما المقام في مصر. ثم حدث أن أنجب قرا يوسف ولدًا هناك أسماه (پير بوداق) فتبناه السلطان أحمد، وتعاهد الرجلان أنهما إذا نجيا يظلان متحالفين بحيث تكون بغداد للسلطان وتبريز لأصحاب الخراف السود.

في هذه الأثناء مات تيمورلنك فعاد قرا يوسف إلى دياره وأحمد لحكم بغداد سنة ١٤٠٥م. لكن السلطان أحمد طمع بتبريز فأخذها سنة ١٤١٠م منتهزًا فرصة غياب قرا يوسف عنها. فعاد هذا الأخير وهزمه وأسره، ثم أجبره على التنازل عن الحكم، قبل أن يعدمه بدعوى خيانة العهد. أرسل قرا يوسف بعدها إبنه شاه محمد إلى بغداد فأخضعها هذا في الخامس من محرم سنة ٨١٤هـ / ١٤١١م، وأصبح حاكمًا عليها نيابةً عن أبيه.

وهكذا انصرف قرا يوسف إلى تدبير شؤون أراضيه، إلى أن بادره شاه رخ ابن تيمورلنك وخليفته بالقتال سنة ١٤٢٠م. تجهز قرا يوسف للمواجهة وسار إليه، غير أنه مرض في الطريق فأصر على المواصلة محمولاً على نقالة، فمات: «موتًا عاديًا، شوهد مطروحًا على الأرض، ففر من كان معه، وانتهب التركمان أمواله وخزائنه حتى لم يبقوا على جسده لباسًا ... ولم يكن أحد من أولاده



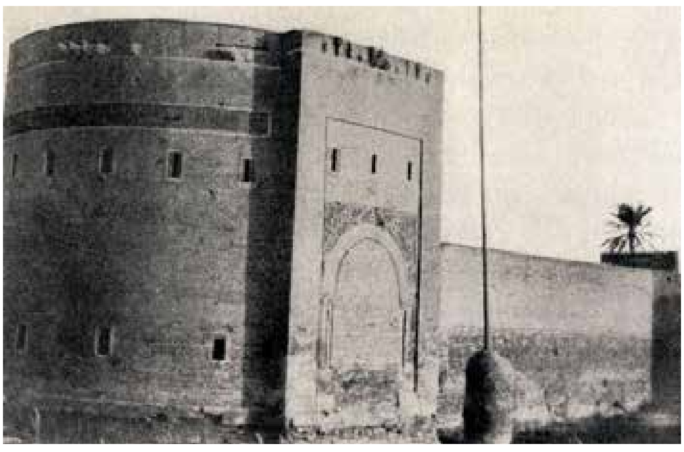
(الصورة رقم ١) جنود تيمورلنك يأتون برؤوس البغداديين إليه.

حاضرًا، ونهبوا خيمته وتركوه في العراء، وبعضهم قطع أذنه لأخذ قرط فيها [...].»

تاريخ العراق بين احتلالين، المجلد الثالث، ص٥٩.

انحدر أبناء قرا يوسف إلى التقاتل في ما بينهم من بعده. اجتمع معظم أصحاب قرا يوسف على اسكندر بن قرا يوسف خلفًا لأبيه فنصبوه في كركوك، وكان پير بوداق قد توفي قبل ذلك. هنا رفض أسپان بن قرا يوسف أن يخضع لأخيه اسكندر، بل نجح في قضم أراضي أخيه الآخر شاه محمد في العراق قطعةً قطعة، إلى أن دخل بغداد نفسها. أسپان هذا هو صاحب المسكوكة التي تدور قصتنا في فلكها.

أصفهان أو أصبهان أو أسپند، صيغ مختلفة وردت في المصادر التاريخية لاسم أسپان بن قرا يوسف. قضى على آخر وجود للجلائريين في الحلة حين احتلها سنة ٨٣٥هـ / ١٤٣١م، ثم تسلل إلى بغداد هو ومن معه بالسلام، منتصف ليلة الخميس، ١٨ شعبان ٨٣٦هـ دخلها من جهة باب الحَلَبَة، الذي يسمى أيضًا باب الطلسم، الباب الذي بناه العباسيون وبعد قرون طويلة سيفجره العثمانيون في أثناء انسحابهم، ليلة احتلال بغداد من قبل الإنكليز سنة ١٩١٧م.



(الصورة رقم ٢) باب الحَلَبَة.

دخل أسپان مدينة السلام فهرب أخوه شاه محمد الذي كان يحكمها منذ عهد أبيهما. نزل في سفينة إلى جانب الكرخ، ثم مشى إلى مشهد الكاظم، ومن هناك على ظهر حمار إلى الدجيل فحديثة، ثم على ظهور الخيل إلى الموصل. بهذه الصورة استتب الأمر لأسپان في بغداد، فصادر أموال أخيه وأقام في المدينة، ثم في السنة التالية على أبعد تقدير ضرب النقود، ومنها هذه القطعة شديدة الندرة، من مجموعتي الشخصية (انظر الصورة رقم ٣).



(الصورة رقم ٣) تانكا ثقيلة من عهد أسپان بن قرا يوسف.

مركز الوجه: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

هامش الوجه: ... سبع وثلاثين وثمان مئة.

مركز الظهر: علي ولي الله الحسن وأبو عبد الله الحسين سبطا رسول الله ضرب مدينة السلام بغداد.

المعدن: فضة.

الفئة: تانكا ثقيلة.

الوزن: ٨،٣١ غم.

تصنيف الندرة: RR.

أول ما يُلاحَظ على هذه المسكوكة هو خلوها من اسم الحاكم، وربما يكون السبب هو خضوع أسپان سياسيًا لشاه رخ ابن تيمورلنك، فإن ذكر اسم الحاكم على النقود من علامات الاستقلال السياسي. أما الفئة التي تنتمي إليها فهي التانكا، وهذه ذات جذور هندية. اعتمدها تيمورلنك كمعيار لنقوده الفضية حين قام بإصلاحاته النقدية سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م. تبعت عدة دول أخرى خطى تيمور في اعتماد تسمية التانكا لنقودها الفضية، من بينها قرا قوينلو.

يزن هذا النموذج ٨،٣١ غم، ويُعتَبَر من فئة التانكا الثقيلة، المضروبة على أساس مثقالين يساوي الواحد منهما ٤،٣١ غم. علمًا أن الوزن النظري المثالي لهذه الفئة يبلغ حوالي ٨،٦ غم. هذا التصنيف مبني على أساس الوزن والمعدن، أما التسمية التي كانت متداولة لنقود أسپان في عهده فغير معروفة على وجه التحقيق، لأنها لم تُذكَر على النقود نفسها ولا في أي مصدر مكتوب. يبقى أن نشير إلى أن نسبة نقود أسپان إليه تتم من خلال سنة ومكان السك، مع الأخذ بالنظر والاعتبار أنه لا يُعرَف من نقوده سوى تلك المضروبة من الفضة.

**مذهب أسپان:**

يتسم المذهب الديني لحُكّام بغداد من أصحاب الخراف السود بشيء من الغموض. فمن جهة يتهمهم المؤرخون المعادون بـ «الزندقة» و»إبطال الشريعة». فمثلًا يُتَّهَم شاه محمد شقيق أسپان الذي حكم بغداد قبله، بأنه «كان فاسقًا زنديقًا لا يتدين بدين وأبطل بتلك الممالك شعائر الإسلام وقتل العلماء»، بعد أن تأثر في شبابه بمسيحيي أربيل فأظهر «الزندقة» بعد وفاة أبيه قرا يوسف. كما يوصف أسپان نفسه بأنه كان»زنديقًا محلول العقيدة».

من جهة ثانية، يورد الأستاذ عباس العزاوي في كتابه (تاريخ العراق بين احتلالين) نقلاً عن الغياثي، قصة مفادها أن أسپان «طلب فقهاء الشيعة» للمناظرة مع «فقهاء بغداد». فاختار على أثر المناظرة «مذهب الشيعة» و»ضربَ السكة باسم الأئمة الاثني عشر». أُرِّخَت هذه الواقعة في المصدر المذكور بسنة ٨٢٠ هـ وهذا ما لا يمكن أن يكون صحيحًا لسببين. الأول أن أسپان لم يكن قد أخذ بغداد حينها ولا أقام فيها، وهو ما يشير إليه العزاوي نفسه. فأسپان أقام في بغداد لفترة بعد وفاة أبيه سنة ٨٢٣هـ أي بعد ثلاث سنوات كاملة من التاريخ المفترض للمناظرة. والثاني هو أنه لا يُعرَف من نقود أسپان سوى ما ضُرِبَ بعد ١٧ سنة من هذا التأريخ، أي سنة ٨٣٧هـ بعد حوالي عام من استيلائه على بغداد.

في هذا السياق، يشير المستشرق الروسي الشهير مينورسكي إلى خطإ تأريخ المناظرة بسنة ٨٢٠ هـ لكنه يقترح سنة ٨٤٠ هـ بدلاً عنه. هذا التاريخ أيضًا لا يمكن أن يكون صحيحًا، لأنه يجيء بعد ثلاث سنوات من سك أسپان لنقوده المنقوشة بأسماء علي والحسن والحسين.

بناءً على ما سبق، إذا كانت المناظرة قد وقعت بالفعل، وكان المقصود بضرب أسپان للسكة باسم الأئمة الاثني عشر، هو عين هذه النقود التي تحمل أسماء علي والحسن والحسين، فإن التاريخ المرجح للمناظرة يقع ما بين سنتي ٨٣٦/٨٣٧ هـ لأن الرواية التاريخية توحي بأن ضرب النقود جاء بعد المناظرة بزمن يسير وكان مما ترتب عليها.

فما هو المذهب الذي انتقل أسپان منه إلى التشيع؟ الاحتمال الأول أنه انتقل من أحد المذاهب السنية، يعضد هذا الاحتمال أن الأغلبية العظمى من نقود قرا قوينلو تحمل أسماء الخلفاء الأربعة (أبو بكر وعمر وعثمان وعلي). الاحتمال الثاني هو أن أسپان انتقل إلى التشيع الاثنى عشري من مذهب آخر غير سني. هنا يشير مينورسكي إلى احتمالية ارتباط نشوء (مذهب أهل الحق) (١) بقرا قوينلو بالإضافة إلى شيوع «الهرطقات» بين صفوفهم. يبقى هذا السؤال مفتوحًا يفتقر إلى إجابة نهائية في الوقت الحاضر.

**سبطان أم سبطا رسول الله؟:**

في الواقع، توجد بضعة نماذج أخرى من نقود أسپان. ضُرِبَت هذه النماذج المعروفة من نقوده في بغداد والحلة، ومعظمها مُؤرَّخ بسنة ٨٣٧هـ تشير المصادر التي تتناول نقود أسپان، وعلى رأسها كتاب (Checklist of Islamic Coins) لستيفن ألبوم، إلى أن التانكا الثقيلة من نقوده هي من طراز يتسم بذكر الحسن والحسين مشفوعًا بلقب (سبطان) رسول الله. هذا التوصيف ليس دقيقًا بما يكفي، فهو لا يميز بين طرازين مختلفين من فئة التانكا الثقيلة المنسوبة إلى أسپان، وهذا ما سأبينه الآن.

يتصف الطراز الأول، بورود كلمة (سبطان) في مركز الظهر الذي يحتوي على نقش أقصر نسبيًا، نصه: علي ولي الله الحسن والحسين سبطان رسول الله ضرب بغداد. (انظر الصورة رقم ٤).



(الصورة رقم ٤) الطراز الأول من التانكا الثقيلة المنسوبة إلى عهد أسپان.

أما الطراز الثاني، الذي منه المسكوكة مدار هذا المقال، فجاء بزيادة في نقش مركز الظهر، وبصيغة (سبطا) بدلًا عن (سبطان)، فكان كما يلي: علي ولي الله الحسن وأبو عبد الله الحسين سبطا رسول الله ضرب مدينة السلام بغداد. (راجع الصورة رقم ٣).

في نقاش تم عبر البريد الإلكتروني، بين كاتب هذا المقال وستيفن ألبوم البحاثة القدير في المسكوكات الإسلامية، أصر الأخير على أن القراءة الصحيحة هي (سبطان) في كل الأحوال. وهذا خطأ لأنه إذا كان الحرف الذي يلي كلمة (سبطا) نونًا في الطراز الثاني، فإنه في هذه الحالة لا يوجد حرف (لام) لكلمة رسول. وعند توجهي بهذه الملاحظة إلى ألبوم، كان جوابه أن النَقَّاش «ربما لم ينتبه إلى أنه نسي أن ينقش لام كلمة رسول». (٢) وهذا احتمال غير وارد إطلاقًا، لوجود أكثر من قالب مختلف لهذا الطراز الثاني، فإذا كان النَقَّاش قد نسي حرف اللام، فوجود قوالب مختلفة يتطلب أن يكون النَقَّاش قد نسي حرف اللام ولم ينتبه إلى ذلك أكثر من مرة، وهذا مستبعد جدًا. (انظر الصورة رقم ٥).



(الصورة رقم ٥) نموذج للطراز الثاني من قالب مختلف عن الذي ضُرِبَت به المسكوكة التي في حيازتي.

من ناحية ثانية، لاحظ الشبه بين لام كلمة رسول في الطرازين الأول والثاني واختلاف نون (سبطان) في الطراز الأول. فإذا أضفنا إلى هذين الدليلين حقيقة أن (سبطان) تُعتَبَر خطأً من الناحية اللغوية. يتبين لدينا أن هذه الفئة من نقود أسپان ضُرِبَت أولاً على الطراز الأول، ثم زيد في نقش الظهر وحُذِفَت نون (سبطان). ولعل الدافع إلى ذلك يكمن في الحاجة إلى توفير المساحة الكافية للزيادة في النقش، مع العلم أن قطر النماذج المعروفة من هذه الفئة من الطرازين يتراوح ما بين ٢٤ و٢٦ ملم. فإذا أخذنا بالنظر والاعتبار تطور النقش من القصر إلى الطول ومن الخطإ إلى الصواب اللغوي يُرَجَّح لدينا أن الطراز الأول سبق الثاني زمنيًا.

**مصير أسپان ونهاية حكم قراقوينلو:**

حكم أسپان لمدة ١٢ سنة، وفي سنواته الأخيرة قاتل المشعشع محمد بن فلاح الذي ادعى المهدوية وأسس دولة عاصمتها الحويزة في عربستان.

في يوم الثلاثاء ٢٨ ذي القعدة من سنة ٨٤٨هـ/١٤٤٤م، توفي أسپان «وذلك بعد أن عاد من أنحاء الحويزة، فقد مكث في بغداد ستة أشهر، فمرض بالقولنج ومات، ودفن داخل المدينة على جانب دجلة في البستان المسمى (عيش خانه)، وقد شعر بالموت قبل وفاته بقليل، وقد وزع جميع ذلك البستان عينًا، وكان قد علق في القبة بصندق».

تاريخ العراق بين احتلالين، المجلد الثالث، ص١٣٢.

بموته نَصَّبَ الأمراء ابنه الوحيد فولاذ وكان هذا صغيرًا. لكن جهان شاه بن قرا يوسف شقيق أسپان طمع هو الآخر في بغداد، فسار إليها وبعد حصار دام ستة أشهر، تمكن من دخولها بعد أن فتح له بعض الأمراء أبوابها. فأصبحت بغداد تابعة لتبريز عاصمة جهانشاه منذ ذلك الحين وإلى نهاية حكم قرا قوينلو. انتهى حكم أصحاب الخراف السود سنة ٨٧٤هـ/١٤٧٠م، ليأتي بعده حكم أصحاب الخراف البيض، الذين دخلوا بغداد في تلك السنة.

خاتمة:

هذا زمان التشرذم. أوان الحروب المستمرة، والتقاتل المرير على الحكم. فاتح يذهب وآخر يجيء، يدوس على الرقاب ويأكل الأرزاق.

اعتمد وادي الرافدين منذ الأزل وإلى أن حل عصر النفط، على الزراعة لتحقيق الحضارة والرخاء. ولأن معظم أنحاء العراق لا تحصل على ما يكفي من الأمطار للزراعة، اعتمدت هذه على شق القنوات وإنشاء السدود والعمل الجماعي المنظم. في الأزمنة التي تنهار فيها السلطة تنهار الزراعة، ويذوي كل شيء معها. هذا أحد أسوأ تلك العصور.

بدأ التدهور أواخر العهد العباسي، ثم تفاقم الوضع بحلول كارثة هولاكو، واستمر الانحدار في العهد المغولي ثم الجلائري. جاء تيمورلنك بضربة قاصمة، وقع العراق على إثرها بين أيدي أصحاب الخراف السود والبيض، ليرى أشد أيامه سوادًا.

شيئًا فشيئًا انهارت السدود وفاضت الأنهار وأَهمَلَتْ الحكومات واجباتها، حتى تحولت مساحات واسعة من الأراضي الزراعية إلى مراعٍ ، وقسم أكبر من المزارعين إلى رعاة. تغيرت طرق التجارة وهاجر التجار والعلماء والمتعلمون والفنانون والحرفيون، إما هربًا بأنفسهم وطلبًا للأرزاق، أو حَمَلَهُم الغزاة مع غنائمهم إلى بلادهم.

هكذا أقفرت البلاد، أو كما يخبرنا المقريزي المؤرخ عن زمن أسپان بن قرا يوسف وقد خربت بغداد:

«وجف معظم نخلها، وانقطع أكثر أنهارها، بحيث لا يُطلَق عليها اسم مدينة، بعد أن كانت سوق العالم». هذا زمان الدمار.

**الهوامش:**

(١) مذهب أهل الحق أو الكاكائية ديانة يعيش معظم أتباعها في غرب إيران وشمال العراق.

(٢) نص جواب ستيفن ألبوم: Perhaps the engraver missed that he has forgotten the L for «rasul».


**المصادر:**

١- عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، الدار العربية للموسوعات، بيروت ٢٠٠٤.

٢- المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٧.

3- Patrick Wing, The Jalayirids: Dynastic State Formation in the Mongol Middle East, Edinburgh University Press, 2016.

4- Muhammad Rashid Al-Feel, The Historical Geography of Iraq Between the Mongolian and Ottoman Conquests, Al-Adab Press, Najef 1965.

5- Stephen Album, Checklist of Islamic Coins, Stephen Album Rare Coins Inc 2011.

6- Faruk Sumer, "Kara-Koyunlu", The Encyclopedia Of Islam, E. J. Brill, Leiden.

7- V. Minorsky (1954) Jihan-Shah Qara-Qoyunlu and His Poetry, Bulletin of the School of Otiental and African Studies, University of London, 16:2, 271-297.

8- H. L. Rabino (1950) Coins of the Jala'ir, Kara Koyunlu, Musha'sha', and Ak Koyunlu Dynasties, The Numismatic Chronicle and Journal of the Royal Numismatic Society, Royal Numismatic Society, 10:37/38, 94-139.

9- S. Album (1976) A Hoard of Silver Coins from the Time of Iskander Qara-Qoyunlu, The Numismatic Chronicle, Royal Numismatic Society, 16:136, 109/157.